خطاب ما بعد الاستعمار في رواية " تغريبة القافر" لزهران القاسمي

د. طارق زياد محمد – جامعة الحمدانية

Post-Colonial Discourse in Zahran Al-Qasimi's novel 'Taghriba Al-Qafer'

Dr. Tareq Zeyad Mohammed - Hamdaniya University

ta90dr@uohamdaniya.edu.iq \ orcid : 0000-0001-9718-8975

❖ الملخص:

يُمثل مُطلح (ما بعد الاستعمار) إحدى اهم نِقاط التحول في آداب ما بعد الحداثة والدراسات الثقافية لما يحمِلهُ هذا المصطلح في طياتهِ مِن خِطابٍ مُضادٍ لـ(الكولونيالية) واستثمار ثقافة المُستعمِر لتقويض المركزية الغربية؛ والبحث في العديد مِن الإشكالات الناجمة عن هذا الخِطاب مِن (المركز – الهامش) إلى (الانا – الآخر) و(السلطة – المعرفة). لذلك نجد بأنَّ دراسة تأثير ما بعد الاستعمار في رواية عربية فائزة بأهم جائزة للرواية في العالم العربية (الجائزة العالمية للرواية العربية 2023) أمرٌ بالغ الأهمية لدراسة تلك التأثيرات على الخطاب الروائي العربي وما يحمله في طياته من تأثيرٍ ملحوظ او غير ملحوظ في هذا النتاج الادبي المهم.

سيحاول البحث الوقوف عند مفاهيم الكولونيالية وما بعدها وما افرزته على المُجتمعات المُتأثِّرة بالاستعمار، وكذلك سيقف البحث عند الجائزة في محاولة لفحص مدى التأثّر بالفكر ما بعد الكولونيالي خاصةً وأنّ الجائزة مُستجلبةٌ من الفكر الغربي من حيث أنّها النُسخة العربية لجائزة (البوكر) البريطانية، ثم سيقف البحث عند الرواية\ عينة الدراسة في محاولة لفحص مدى تأثرها بالفكر ما بعد الكولونيالي. يتبنى البحث مصطلح (ما بعد الاستعمار) بوصفه فاصلة زمنية واشكالية مهمة في الخطاب النقدي الحديث من خلال تغلغل اشكال هذا الخطاب في الادبيات المتأثرة بالأفكار الاستعمارية وتمظهرات هذا التأثير على الذاكرة والهوية واللغة والثقافة.

❖ الكلمات المفتاحية: (ما بعد الكولونيالية، الدراسات الثقافية، السرد المُضاد، النقد الثقافي)

❖ Abstract :

The term "post-colonialism" represents one of the most important turning points in postmodern literature and cultural studies because it carries within it a

counter-discourse to (colonialism) and the investment of the colonizer's culture to undermine Western centralization; and the search for many of the issues resulting from this discourse from (center - margin) to (ego - other) and (power - knowledge). Therefore, we find that studying the impact of post-colonialism in an Arabic novel that won the most important prize for novels in the Arab world (International Prize for Arabic Fiction 2023) is very important to study these influences on the Arabic novelistic discourse and the influence it carries within it, whether noticeable or unnoticed in this important literary product.

The research will attempt to examine the concepts of colonialism and post-colonialism and their impact on societies affected by colonialism. The research will also examine the prize in an attempt to examine the extent of influence on post-colonial thought, especially since the prize is imported from Western thought in that it is the Arabic version of the British Booker Prize, then the research will examine the novel / study sample in an attempt to examine the extent to which it is influenced by post-colonial thought. The research adopts the term "post-colonialism" as an important interval and issue in modern critical discourse through the penetration of forms of this discourse in the literature influenced by colonial ideas and the manifestations of this influence on memory, identity, language, and culture.

❖ Keywords: (Post colonialism, cultural studies, counter-narrative, cultural criticism)

❖ توطئة:

يُمثل مُطلح (ما بعد الاستعمار) إحدى اهم نِقاط التحول في آداب ما بعد الحداثة والدراسات الثقافية لما يحمِلهُ هذا المصطلح في طياتهِ مِن خِطابٍ مُضادٍ لـ(الكولونيالية) واستثمار ثقافة المُستعمِر لتقويض المركزية الغربية؛ والبحث في العديد مِن الإشكالات الناجمة عن هذا الخِطاب مِن (المركز – الهامش) إلى (الانا – الآخر) و(السلطة – المعرفة). لذلك نجد بأنَّ دراسة تأثير ما بعد الاستعمار في رواية عربية فائزة بأهم جائزة للرواية في العالم العربية (الجائزة العالمية للرواية العربية 2023) أمرٌ بالغ الأهمية لدراسة تلك التأثيرات على الخطاب الروائي العربي وما يحمله في طياته من تأثيرٍ ملحوظ او غير ملحوظ في هذا النتاج الادبي المهم.

يتبنى البحث مصطلح (ما بعد الاستعمار) بوصفه فاصلة زمنية واشكالية مهمة في الخطاب النقدي الحديث من خلال تغلغل اشكال هذا الخطاب في الادبيات المتأثرة بالأفكار الاستعمارية وتمظهرات هذا التأثير على الذاكرة والهوية واللغة والثقافة. يحاول البحث الوقوف عند العلاقة بين تأثيرات ما بعد الاستعمار على النتاج الادبي الروائي. ورواية "تغريبة القافر" مثالاً مهماً للبحث ومداراً للإجابة عن تساؤلات البحث.

❖ **الكولونيالية وما بعدها:**

على الرغم مِن أنّي لا أُفضل الحديث تاريخياً عن مصطلحٍ ما إلا أنّ الواقع التاريخي قد يفرض نفسه إجرائياً عل أي باحث؛ لذلك لابد من الوقوف عند اباطرة الدراسات الثقافية \ ما بعد الكولونيالية من (أنطونيو غرامشي 1891 – 1937) و (فرانز فانون 1925 –1961) و(ميشيل فوكو 1926 – 1984) واستشراق (ادوارد سعيد 1935 – 2003) وصولاً إلى (هومي . ك. بابا 1949).

إنَّ الدراسات ما بعد الكولونيالية تعمل وفق محركين أساسيين هما الجانب العملي والجانب النفسي؛ وكلا الجانبين يتناوبان على تجاذب الفكر النقدي المؤثر في الخطابات والمجتمع. فإذا بدأنا بـ (أنطونيو غرامشي) الذي مهَّد للكولونيالية وما بعدها في حديثه عن (الهيمنة الثقافية) والتي بلورها من الفكر الماركسي الذي انتقده بطريقة جعل من مفهوم (الهيمنة) انموذجاً للثورة الشعبية او بصورة آخرى مُكملاً لنظرية الهيمنة عند ماركس ولينين[1]. فهو يستخدم مفهوم الهيمنة مُنطلقاً من معناها اللغوي (القيادة) لفحص الاشكال الثقافية والايديلوجية ذات القدرة على تشكيل المجتمع[2]، فهو يرى بأنّ المجتمع المكوَّن من طبقات (عليا \ سفلى) – (مُسيطرة \ عُماليَّة) – (حاكمة \ بروليتارية) يجب أن تتحصل الطبقات الحاكمة على التأييد الاجتماعي والأيديولوجي من الطبقات السفلى للحفاظ على السياسات والأيديولوجيات الحاكمة[3]. فالهيمنة مفهوم سياسي طوره (أنطونيو غرامشي) للتعبير عن غياب الثورات الشعبية في المجتمعات الرأسمالية الغربية ومن خلال فكر استقراء فكر (أنطونيو غرامشي) ينجده يُنَظِّر لمفهوم (المثقف العضوي) بوصفه مُناظِراً لـ (المثقف التقليدي \ العادي) الذي يُقدِّمه على أنّه (المعلم – الفلاح – العامل – الحرفي– الموظف) كل هؤلاء مثقفون ثقافة مهنية وفق طبيعة عملهم[4]. اما المثقف العضوي فهو من يكرس نفسه لخدمة القضايا الاجتماعية في مجتمعه والمجتمعات الآخرى والعمل على بناء نظام فكري قائم على القيم الأساسية وتحرير العقل والنهوض بالمجتمع[5].

اما القطب الآخر من اقطاب الخطاب ما بعد الكولونيالي فهو (فرانز فانون) الذي اعده الأعظم بين زملائه لكونه تمكن تقديم صياغة فعلية لرؤى الاستعمار وما بعده في الفكر والفلسفة، فقد أعاد الفكر ما بعد الكولونيالي إلى اساسين هما (المانوية العنصرية و الكولونيالية). فهو يرى بأنّ (المانوية) التي تعني " نظاماً ثنائي الفكر يقدم

---

(1) ينظر: كورنياوان، هيرو، النظرية والأساليب والتطبيقات: علم اجتماع الادب، يوجوكارتا – جراها المو للنشر – إندونيسيا، 2012: 72

(2) ينظر، فاروق ، H.T، مقدمة في علم الاجتماع الادبي من البنية الجينية الى ما بعد الحداثة، مكتبة الطلاب للنشر – إندونيسيا ، 2015 : 63

(3) ينظر: كورنياوان، هيرو: 74

(4) ينظر: غرامشي، أنطونيو، كراسات السجن، تر: عادل غنيم، دار المستقبل العربي للنشر – بيروت، 1994 : 24 –25.

(5) ينظر: م.ن: 27

العالم على أنّه منقسم بين الخير والشر وهو متجذر من (دين ماني – القرن الثالث الميلادي) الذي يرى بأنّ الرب والشيطان لايزالان في صراع للسيطرة على العالم"[6].

استفاد (فانون) من أفكار (غرامشي) في بلورة فكر ما بعد الكولونيالية وتأصيله لهذا الفكر بأساسين اثنين هما: (العنف والتحليل النفسي) فقد انطلق (فانون) في فكرة الهيمنة الثقافية لتحويل مفهوم (العنف \القوة) إلى رمزٍ للخلاص من الاستعمار[7]. واذا ما تحقق العنف وحقق غايته الاستعمارية فإنّ ذلك سيولد توترات عقلية ونفسية لابد من دراستها ودراسة مُسبباتها الاستعمارية ويحيل ذلك إلى " الشرط الكولونيالي وحالات الدياليكتك الموجودة ضمن جنون الاضطهاد عند المُستعمِر وجنون الارتياب عند المُستعمَر، وتعكس المناخ النفسي الذي تسبح فيه الذوات الكولونيالية"[8].

اما (ميشيل فوكو) فقد تأسست كتاباته الكولونيالية على تناول التجارب الغربية في قراءةٍ تفكيكيةٍ فاحصة ضمن ما اسماه: (الأنطولوجيا التاريخية \ انطولوجيا الحاضر)[9] فقد ركزت فلسفته على " التجارب الإنسانية والثقافية في التاريخ وتحليلها وفقاً لعلاقات المعرفة والسلطة وتبيين كيفية تشكيل الذات الحديثة في علاقتها بالحقيقة، مُتميزةً بخطابها النقدي التاريخي جاعلةً من وظيفتها النقدية عملية سياسية تهدف إلى التحويل والتغيير"[10]، فقد ارتكزت دراسات (فوكو) على البعدين (الاركيولوجي و الجينالوجي) وقد حدد (فوكو) بأنّ فلسفته تعمل على " تحليل الوقائع الثقافية التي تُميّز ثقافتنا ومحاولة وضع نفسه خارج الثقافة التي ينتمي اليها ومن ثم تحليل شروطها الصورية حتى يتمكن من نقدها"[11].

تكتسب كتابات (فوكو) الفلسفية مكانتها في كونها تقدم تهديماً للمُسلمات وفق آليات التشكيل العقلانية الرصينة كما أنّها تعمل على اختراق الظاهر المألوف للوصول إلى التابوهات وما هو هامشي في المناطق المظلمة فكرياً وصولاً إلى اراء ومقاصد فكرية تكشف حقيقة الممارسات الغربية المُتخفية وراء الممارسات الحضارية المزيفة والشعارات الفارغة –حسب ما يقول–.

اما (إدوارد سعيد) فقد فكك الخطاب الكولونيالي في كتابيه (الاستشراق) و (الثقافة الامبريالية) والذين يُعدان المرجع في خطاب ما بعد الكولونيالية، حيث عمل على دراسة العقل والليبرالية واعتبر ان التنوير هو "أيديولوجيا

---

[6] غيبسون، نايجل . سي، فرانز فانون المخيلة ما بعد الكولونيالية، تر: خالد عايد أبو هديب، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات – الدوحة قطر، 2013 : 32

[7] فانون، فرانز، معذبو الأرض، تر: سامي الدروبي، مركز مدارات للأبحاث والنشر – القاهرة، 2015 : 16

[8] وحيد، بن بو عزيز، جدل الثقافة مقالات في الآخرية والكولونيالية والديوكولونيالية، دار ميم للنشر – الجزائر، 2018 : 32

[9] ينظر: فوكو، ميشيل، اقوال وكتابات (ما هو التنوير)، مجلة الأدبية، العدد 207، المجلد 4، 1948 : 687

[10] الزاوي، بغورة، ما بعد الحداثة والتنوير– موقف الانطولوجيا التاريخية دراسة نقدية، دار الطليعة – بيروت، 2009 : 118

[11] فوكو، ميشيل، سعيد ومكتوب، مكتبة لومير غاليمارو للنشر – باريس، المجلد 2، 1994: 607

الغرب لمواجهة الثقافات غير الغربية"[12]؛ وتوصل إلى تفكيك الخطاب الغربي الموجه لمعرفة الشرق المتمثل بالخطاب الاستشراقي مُصوراً ذلك الخطاب بأنّه يرى الشرق على أنّه " لا عقلاني وطفولي بينما صورة الغربي بأنّه عقلاني ومتحلٍ بالفضائل"[13].

إنّ صورة الشرق والمعرفة به عند المُستعمِر الغربي لم تكن كاملة كون معرفة الغربي \ المستعر عن الشرق لم تكن تشمل كل الجوانب الثقافية بل ارتبطت باللغة؛ فهو عند الغرب شرقاً لغويا فقط لا شرقاً ثقافياً متكاملاً وهذه الفكرة نقلها (ادوارد سعيد) متأثراً بـ (فريدريك نيتشه) في حديثه عن اللغة بأنّها: " جيشٌ من الاستعارات والكيانات والتشبيهات المجتمعة والمجسمة وبإيجاز هي خلاصة العلاقات الإنسانية"[14]. فاللغة المنقولة كانت اشعار العرب وزخرفاتهم اللغوية واغلبها صور غير حقيقية او غير مألوفة او اوهماً وهي ما يقول عنه (نيتشه) في موضعٍ ما: (الحقيقة كلها اوها وربما أنّنا نسينا أنّها كذلك). فالخطاب الاستشراقي جاء بصفته سبباً لإضفاء المشروعية على الكولونيالية الغربية وكذلك نتيجة للمعرفة التي توصل اليها الغرب عن الشرق؛ فقد استفاد (ادوارد سعيد) من هذا كله في تقديم خطاب مضاد للكولونيالية الغربية وتقويضها ووضع دعائم ما بعد الكولونيالية.

وفي السياق ذاته فإنّ (هومي .ك. بابا) قد انطلق من أفكار (ادوارد سعيد) التي تقضي باستغلال الغرب لسلطته في اعمام الخطابات والسيطرة الثقافية على الآخر غير الأوربي وطبيعة العلاقة بين المُستعمِر والمُستعمَر، فإنّه على خلاف مع (ادوارد سعيد) حيث يجد بأنّه يمكن تقاطع هذين العالمين من خلال مفهوم (الهجنة \ التهجين)[15]، كما انتقد (هومي .ك. بابا) اهتمام النظرية النقدية بالبنية العميقة على حساب الجانب الإنساني والثقافي[16]. وكذلك اهتم بالتدخل الأيديولوجي والثقافي[17]. واستفاد ايضاً من طروحات كل من سبقه من (أنطونيو غرامشي) إلى (فرانز فانون) في بلورة أفكاره وخطابه ما بعد الكولونيالي.

ومن خلال ما تقدم نجد بأنّ الخطاب ما بعد الكولونيالي في الرواية العربية (عينة الدراسة) يأتي ضمن خليط معرفي وثقافي ومعطى ما بعد حداثي شكل جملة مفاهيم ستساعدنا في قراءة رواية "تغريبة القافر" لزهران القاسمي وكيف مثلت هذه الرواية معطى ما بعد كولونيالي جديد في الدراسات الثقافية العربية.

---

[12] هنتغتون، صامويل، صِدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، تر: طلعت الشايب، دار سطور للنشر –مصر، 1999 : 109

[13] سعيد، ادوارد، الاستشراق – المعرفة – السلطة، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية للنشر –بيوت، 2006 : 78

[14] م.ن: 35 –36

[15] ينظر: بابا، هومي.ك ، موقع الثقافة، تر: ثائر ديب، المشروع القومي للترجمة – مصر، 2004 : 220

[16] ينظر: م.ن: 16

[17] ينظر: م.ن: 77

❖ **الجائزة العالمية للرواية العربية:**

هي جائزة سنوية تم اطلاقها عام (2007) من قبل مركز ابوظبي للغة العربية التابع لمديرية الثقافة والسياحة – ابوظبي دولة الامارات العربية المتحدة، وهي من اهم الجوائز العربية للرواية وهي مطابقة للنسخة البريطانية Booker prize حيث تدعم الجائزة ورش عمل للكتابة ومنح للكتابة الإبداعية. ويذكر موقع جائزة Booker البريطانية بأنّ جالجائزة البريطانية تُقدم منحا لدراسة الماجستير في الكتابة الإبداعية ومبادرات القراءة الصوتية وتمويل الإصدارات المكتوبة بلغة برايل[18]. اما الجائزة العالمية للرواية العربية فإنّها تقدم شروحاً مفصلةً عن طبيعة الجائزة وقيمتها والأنشطة المصاحبة لها بشكل مقارب جداً لشروحات جائزة Booker البريطانية ويصرح موقع الجائزة بأنّ الجائزة العربية تحظى بدعم جائزة Booker إلا أنَّها ليست تابعة لها[19]. هذا النفي بحد ذاته يجعلنا نقف قليلاً امام البعد ما بعد الكولونيالي في الجائزة حيث أنَّ أعضاء مجلس أمناء الجائزة مثلاً (ايفيلين سميث \ إيزابيل ابوالهول) بريطانيين و (ميشيل مشبك) امريكي ومجموعة من النقاد العرب يرأسهم (د. علي بن تميم) هذه الأسماء توحي بالتأثير الشديد للفكر ما بعد الكولونيالي و الأثر الاستعماري في نفوس أصحاب الجائزة و اعتقادهم الدائم بضرورة وجود مستشار غربي يقدم لهم ما يتصورون أنّه صحيح وبالحقيقة هي عُقدة (المستعمر) ووجود الجائزة ووجود نفي أصحاب الجائزة بأنّها تابعة للجائزة البريطانية إنّما هو تجسيدٌ للقول بأنّ ما بعد الكولونيالية هي خطابٌ مُضادٌ للكولونيالية.

❖ **ملامح ما بعد الاستعمار في رواية " تغريبة القافر":**

يناقش (هومي .ك. بابا) في كتابه (موقع الثقافة) مسألة مهمة جداً وهي (وطن المبعدين \ المنفيين) او كما يصفها بـ "تبعثر الشعب في ازمنة آخرى وامكنة آخرى. في أمم الاخرين، وتجمّعهم على حافة ثقافة اجنبية"[20]. ومن خلال تتبعنا للمشهد السردي في عموم الرواية نجد بأنّ القارئ امام نمط من التحولات السردية من الغرق إلى

---

[18] الموقع الالكتروني لجائزة Bookerالبريطانية:
https://thebookerprizes.com/

[19] الموقع الالكتروني للجائزة العالمية للرواية العربية:
https://arabicfiction.org/

[20] ينظر: بابا، هومي. ك، موقع الثقافة: 265

السيل الجارف إلى الضياع في السراديب والضياع في المدن الكبيرة والتحول من المشهد الجماعي إلى الضياع الفردي ومصارعة الموت والضياع في البحث عن مصدر الحياة. هذه التحولات السردية في المتن الروائي تقودنا للوقوف عند عناصر محدودة في الرواية وصولاً لغاياتنا، وأبرز تلك المحطات هي:

اولاً: المرأة بوصفها مرتكزاً نقدياً:

يقدم الكاتب صورة عن المرأة القروة بأنّها وفية وشديدة الوفاء لزوجها ولكنّها كثيرة الكلام وكثيرة الحسد فثلاً يقول على لسان إحدى الشخصيات الرئيسة في الروية بأنّها: " تكتم عن النساء كل شيء ... فهي لاتأمن السنتهن"[21]. ويقول على لسان شخصية أخرى فقدت زوجها بأنّها: "أصبحت تشك في كل ابتسامة وكملة ممن يحيطون بها، حتى بلغ بها التوجس ميلغاً جعلها تعتزل مجالسة النساء"[22]. يحاول الكاتب هنا تقديم صورة عن رغبة النساء في العودة إلى بساطة الحياة وعفويتها ورفض الحداثة ومنتجاتها ومخرجاتها وإفرازاتها على المجتمعات، والكاتب هنا يقدم لنا اربع شخصيات نسائية وهن: (امه "مريم – الغريقة" \ عمته التي ربته "كاذية بنت غانم" \ مرضعته "اسيا بنت محمد" \ زوجته "نصرا بنت رمضان") يصورهن بطريقة سردية تكاد تكون واحدة وهي حمل جميع الشخصيات الأربعة لبنية (الظلم و الفقد) وهو قريب من الأربع لأنَّه ينحاز بين فترة وآخرى إلى احداهن او احد اقربائهن. فالرواي وشخصياته دائماً يبحثون عن (الماء \ الحياة) ويبحثون عن امل العيش وهو ما نجح الراوي في تقديمه وهو صورة \ رمزية (الماء) وعلاقته بالشخصيات. لكن يبقى السؤال هو: هل تعامل الراوي مع الشخصيات تعاملاً عادياً ام تعاملاً ما بعد كولونيالي؟

إنّ الفكر النقدي ما بعد الكولونيالي هو وعي بالثقافات الأخرى والهويات الاجتماعية التي يُرادُ لها أن تندثر وتطمس ويُراد لها أن تعود مرة آخرى بثوب جديد على أنّها ردود على المُستعمِر[23]. وبمعنى ادق هي (التعددية الثقافية) وبروز الهوية المختلفة وكتابات لإثبات (المركز \ الانا) ضد (المركز \ المُستعمِر – الخطاب المركزي) الذي يحاول اقصاء ثقافة الآخر. فالكاتب يقدم لنا الشخصيات وأحاديثهم بطريقة تكون مضادة للفكر الحداثي الغربي (شكلاً) لكن مضمونها نجده حاملاً لأنساقٍ مضمرة لا يفصح عنها الكاتب وهي (نسق الرد) و (نسق الحداثة) فالكاتب يسعى بشتى الوسائل ابراز ثقافته المحلية العالية وذلك بذكر مصطلحات محلية من اللهجة المحلية للقرى العُمانية لكن هذا الامر يتحول بالضد منه حيث تبرز الثقافة ما بعد الكولونيالية في صفحات الرواية على أنّها السمة البارزة من خلال تناول الشخصيات والتعامل مع احداث الرواية. فنجد الراوي كثيراً ما يتحدث عن الجهل عند النساء والخوف من الحسد وتقديم القرابين والنذور وتعليق الطلاسم والتمائم، وهي صورٌ كفيلة بفضح

---

[21] القاسمي، زهران، تغريبة القافر، دار رشم للنشر –تونس، 2022: 51

[22] الرواية : 52

[23] ينظر: لومبا، آنيا، نظرية الاستعمار الأدبية وما بعد الأدبية، تر: محمد عبدالغني غنوم، دار الحوار – سوريا، 2007 : 244

ثقافة الكاتب المضادة لواقعه الذي يحاول جاهداً للتخلص من هذه الصورة النمطية المأخوذة عن النساء العربيات وابتعادهن عن الثقافة.

ثانياً: التناص مُرتكزاً ما بعد كولونيالياً:

عرفنا سابقاً بأنَّه لا وجود لنصٍ بريء وكما يقول (بول فاليري) (الأسد مجموعة خراف مهضومة) فالتناص قد يبدو امراً واضحاً او متخفياً تحت اقنعة وحيل البلاغة والأدبية لكن في رواية "تغريبة القافر" نجد بأنّ الكاتب قد وقع في تناصٍ مركب مع مجموعة حكايات قديمة وحديثة، فنجده مُتناصاً مع (ارنيست هيمنغواي) في (الشيخ والبحر) فبطل الرواية قد عاش (غربة) في البحث عن رزقه وعاش في علاقة واسعة مع البحر والماء وعاش ضمن صراعٍ مع الفقر والحرمان وقد قرأنا في (الشيخ والبحر) على لسان احد الابطال : " بأنّ الانسان يمكن هزيمته ولا يمكن قهره"[24]. فهو صراع دائم مع القهر والحرمان والبحث عن الرزق وكذلك الامر في رواية "تغريبة القافر".

نجد أيضا بطل الرواية الذي يتميز بحدةِ وقوة حاسة السمع التي يتميز بها عن غيره، " يفلت من قبضتها ويحني جسده ثم يلصق اذنه بالأرض ويضيق عينيه كم يحاول رؤية شيء ما في العتمة، ويصيخ السمع كأنّ احداً يناديه من الأعماق"[25]. حيث يصور الكاتب بطل الرواية بأنّه يضع اذنه على الأرض ليعرف أماكن وجود الماء تحته وهذا الامر نجده مُتناصاً مع رواية (العطر) للروائي الألماني (باتريك زوسكيند) والتي عاش بطلها نفس ظروف بطل "تغريبة القافر" حيث تبدأ الروايتين بموت الام وتولي مرضعة او مربية تربية الطفل ليصبح ذا شأن عندما يكبر، ففي رواية (العطر) نجد بأنّ بطلها يمتلك حاسة شم قوية جداً والذي يستغلها في العثور على ضحاياه وقتلهم وهو الامر نفسه في "تغريبة القافر" حيث نجد بأنّ الماء قد يكون سبباً في الموت اولاً او اخيراً.

وفي هذا المجال نجد بأنّ سؤالاً يطرح نفسه وبقوة: لماذا لم يتأثر الكاتب براوية (امارة البئر) للروائي المغربي (محمد سالم الشرقاوي) مثلاً؟ فهو ايضاً يتحدث عن معاناة الانسان مع الماء والبحث عن الحياة. والجواب بإختصار هو التأثير الثقافي الاستعماري او نسق ما بعد الاستعمار المحرك لخطاب الكاتب والمسيطر عليه. حيث أنّ (الماء) له رمزية أساسية لدى كُتَّاب الخليج العربي وسكان منطقة الخليج واغلب المناطق المحاذية للانهار والبحار لكن هو نسق ما بعد الاستعمار المسيطر على الكاتب والذي كما يقول عبدالله الغذامي هو كتابة الثقافة للنص وليس كتابة الكاتب للنص[26].

ثالثاً: الرمز مرتكزاً نقدياً ومرتكزاً ما بعد كولونيالياً:

---

[24] هيمنغواي، ارنيست، الشيخ والبحر، تر: د. زياد زكريا، دار الشرق العربي للنشر – لبنان، 1970

[25] الرواية : 65

[26] الغذامي، عبدالله، النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي – بيروت، ط3 ، 2005 :80

تعجُ الرواية بالرموز المغلَّفة بالمُحسنات البديعية \ البلاغية التي تخفي تحت طياتها انساقاً مضمرة من الترميز المقصود او المفروض على الكاتب، فالأغلب في الرواية رمزية (الماء) الذي يُقدِّمه الكاتب على أنّه الحياة او ما هو ضد الموت والفناء؛ لكن هذا الماء \ الحياة قد يتحول إلى سيل جارف عظيم، وهذه الرمزية (السيل) تحيل القارئ إلى الرغبة الجامحة بالتغيير لكن هذا التغيير القوي والمفاجئ قد يجر صاحبه إلى الفناء. يقدم الكاتب (الماء) على أنّه رمز لجلب الثراء والمعيشة الرغيدة فيقول: "عاش الناس حياة رفاه ومال، المال بيد الأغنياء وأصحاب البساتين الكبيرة لاسيما الذين توسعوا في المزارع الجديدة "[27]. ثم يقول الكاتب بعد هذا السرد عن ربيع الحياة في قريته الى صيفٍ قاسٍ وفصل من القحط وهو تحول منهجي في السرد ففصل الصيف قليل الحضور في الادبيات العربية لسببين اجدهما منطقيين، الأول: الصيف فصل عطلة واسترخاء والثاني: هو فصل حرارة وجفاف لذلك يتجنب الكُتاب الترميز بهذا الفصل؛ لكن الكاتب هنا يقدم فصل الصيف على أنّه الإنذار القادم والتغيير المناخي الذي لابد منه في ظل المتغيرات الكونية الجديدة التي نعيشها، وهذا التغيير يحيلنا إلى الرمز الأول (الماء). فهل (الماء) في الرواية هو الماء الذي نعرفه ام شيء آخر؟ بحسب ما قرأت في صفحات الرواية هو أنّ النسق ما بعد الكولونيالي واضح في عموم الرواية رغم أنّ الكاتب حاول جاهداً إخفائه لكن فضحه ماء الخليج واعني هنا (الذهب الأسود \ النفط) فهو جعل من مجموعة قرى متناثرة ومتناحرة فيما بينها سادةً للمال والاعمال في العالم الجديد. وإنّ اختفاء هذا (الماء) الرمز (النفط) سيكون السبب في فقر تلك القرى، وإنّ وجوده هو من جلب لهم الثراء والاستقرار والرفاهية وقد يسبب الطغيان في بعض الأحيان. والكاتب لم يطرح هذه الرمزية على أنّها دائمة فهو قد استجاب لمتغيرات العصر العلمية التي تقول بإمكانية نضوب النفط من المنطقة وهي استجابة ضمنية للكولونيالية العالمية التي تقدمُ تقاريراً مستمرة بهذا الشأن او انخفاض انتاج النفط بدءاً من 2030 وهو ما نجده في اغلب دول الخليج العربي التي بدأت منذ سنوات بإعداد خطط ودراسات تسعى لترك النفط كمصدراً من مصادر تمويل الدول والتحول إلى الاعتماد على الطاقة البديلة والصناعة والزراعة والسياحة والاستثمار وغيرها. هذه التتحديات يترجمها الكاتب برمزية الماء وجفافه فالرواية استشراف للمستقبل وتجسيد للتحذيرات الدولية فهي استجابة لما بعد الكولونيالية بتقديم خطاب مضاد للخطاب الكولونيالي.

❖ الخاتمة:

مثَّلَ مُطلح (ما بعد الاستعمار) إحدى اهم نِقاط التحول في آداب ما بعد الحداثة والدراسات الثقافية لما يحمِلهُ هذا المصطلح في طياتهِ مِن خِطابٍ مُضادٍ لـ(الكولونيالية) واستثمار ثقافة المُستعمِر لتقويض المركزية الغربية. ومن خلال تتبعنا للمشهد السردي في عموم الرواية نجد بأنّ القارئ امام نمط من التحولات السردية من الغرق إلى السيل الجارف إلى الضياع في السراديب والضياع في المدن الكبيرة والتحول من المشهد الجماعي إلى الضياع الفردي ومصارعة الموت والضياع في البحث عن مصدر الحياة.

---

[27] الرواية: 98

قدمت الرواية صورة المرأة بما يسميه النقد الثقافي هي (التعددية الثقافية) وبروز الهوية المختلفة وكتابات لإثبات (المركز \ الانا) ضد (المركز \ المُستعمِر – الخطاب المركزي) الذي يحاول اقصاء ثقافة الآخر.

اما التناص في الرواية فقد وجدناه تناصاً مركب مع مجموعة حكايات قديمة وحديثة، فنجده مُتناصاً مع (ارنيست هيمنغواي) في (الشيخ والبحر) وكذلك مُتناصاً مع رواية (العطر) للروائي الألماني (باتريك زوسكيند) والتي عاش بطلها نفس ظروف بطل "تغريبة القافر".

اما الرموز فقد وجدنا بأنّ الرواية تعجُ بالرموز المغلَّفة بالمُحسنات البديعية \ البلاغية التي تخفي تحت طياتها انساقاً مضمرة من الترميز المقصود او المفروض على الكاتب، التي يترجمها الكاتب برمزية الماء وجفافه فالرواية استشراف للمستقبل وتجسيد للتحذيرات الدولية فهي استجابة لما بعد الكولونيالية بتقديم خطاب مضاد للخطاب الكولونيالي.

❖ **مصادر البحث ومراجعه:**

اولاً: الكتب:

1. بابا، هومي.ك ، موقع الثقافة، تر: ثائر ديب، المشروع القومي للترجمة – مصر، 2004
2. الزاوي، بغورة، ما بعد الحداثة والتنوير– موقف الانطولوجيا التاريخية دراسة نقدية، دار الطليعة – بيروت، 2009
3. سعيد، ادوارد، الاستشراق – المعرفة – السلطة، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية للنشر –بيوت، 2006
4. الغذامي، عبدالله، النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية، المرز الثقافي العربي – بيروت، ط3 ، 2005
5. غرامشي، أنطونيو، كراسات السجن، تر: عادل غنيم، دار المستقبل العربي للنشر – بيروت، 1994
6. غيبسون، نايجل . سي، فرانز فانون المخيلة ما بعد الكولونيالية، تر: خالد عايد أبو هديب، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات – الدوحة قطر، 2013

7. فاروق ، H.T، مقدمة في علم الاجتماع الادبي من البنية الجينية الى ما بعد الحداثة، مكتبة الطلاب للنشر –إندونيسيا ، 2015

8. فانون، فرانز، معذبو الأرض، تر: سامي الدروبي، مركز مدارات للأبحاث والنشر – القاهرة، 2015

9. فوكو، ميشيل، سعيد ومكتوب، مكتبة لومير غاليمارو للنشر – باريس، المجلد 2، 1994

10. القاسمي، زهران، تغريبة القافر، دار رشم للنشر –تونس، 2022

11. كورنياوان، هيرو، النظرية والأساليب والتطبيقات: علم اجتماع الادب، يوجوكارتا – جراها المو للنشر – إندونيسيا، 2012

12. لومبا، آنيا، نظرية الاستعمار الأدبية وما بعد الأدبية، تر: محمد عبدالغني غنوم، دار الحوار – سوريا، 2007

13. هنتغتون، صامويل، صِدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، تر: طلعت الشايب، دار سطور للنشر –مصر، 1999

14. هيمنغواي، ارنيست، الشيخ والبحر، تر: د. زياد زكريا، دار الشرق العربي للنشر – لبنان، 1970

15. وحيد، بن بو عزيز، جدل الثقافة مقالات في الآخرية والكولونيالية والديوكولونيالية، دار ميم للنشر – الجزائر، 2018

ثانياً: الدوريات:

16. فوكو، ميشيل، اقوال وكتابات (ما هو التنوير)، مجلة الأدبية، العدد 207، المجلد 4، 1948

ثالثاً: المواقع الالكترونية:

17. الموقع الالكتروني لجائزة Booker البريطانية:

/https://thebookerprizes.com

18. الموقع الالكتروني للجائزة العالمية للرواية العربية: https://arabicfiction.org